الفصل الثانى

عمر الخيام: المولد والوفاة والموطن

(١)

المولد والوفاة

يذكر النظامى العروضى السمرقندى فى كتابه جهار مقاله أن الخواجه الإمام عمر الخيامى، والخواجه الإمام مظفر الاسفزازى لمّا هبطا مدينة بلخ سنة ٥٠٦هـ نزلا فى قصر الأمير أبى سعد فى حىّ النحّاسين – أى أن عمر الخيام كان حياً يُرزق حتى تلك السنة، ثم يقول إن سلطان مرو أرسل إلى عمر سنة ٥٠٨هـ أن يعمل تنبؤاً بالطقس، أى أنه كان حياً أيضاً حتى هذه السنة. ثم يروى البيهقى فى كتابه حكماء الإسلام أنه دخل على الإمام عمر فى خدمةٍ لوالده (أى والد البيهقى) سنة ٥٠٧هـ. وكذلك يروى العروضى أنه فى زيارة له إلى نيسابور سنة ٥٣٠هـ علِمَ أن عمر الخيام قد حَجَبَ وجهه التراب منذ بضع سنين وأصبح منه العالم السفلى يتيماً، وقيل له إن عمر الخيام قد مات. والبضع فى اللغة مابين الثلاث إلى التسع فإذا جاوزت لفظ العشر ذهب البضع فلا تقول مثلاً بضع وعشرون، ولذلك أحسب أن مترجم كتاب براون تاريخ الأدب الإيرانى قد أخطأ حينما جعل البضع ثلاث عشرة سنة وكذلك أظن أن المرحوم الصرّاف قد جانبه الصواب حينما ذكر ناقلاً عن العروضى أنه قد قيل له إن أستاذه قد توفى منذ أربع سنوات (!!) وكأنه قد فسّر البضع بأنه أربع سنوات.

فإذا اتفقنا على ماهية البضع وطرحنا ذلك من السنة – ٥٣٠هـ – التى نزل فيها العروضى نيسابور، لكان معنى ذلك أن وفاة الخيام جرت مابين ٥٢١ و٥٢٧ هـ، أو أنها جرت بشهادة العروضى بعد آخر مرة روى أنه كان معه فيها وذلك سنة ٥٠٨هـ. وفى حاشية محمد عبد الوهاب القزوينى على جهار مقاله أن أكثر مؤلفى أوروبا كتبوا أن وفاة الخيام كانت سنة ٥١٧هـ. وكتب بروكلمن أنها سنة ٥١٥هـ. ويورد مؤلف مادة الخيام بالموسوعة البريطانية أن وفاة الخيام كانت فى الرابع من ديسمبر سنة ١١٢٢م بنيسابور، وأن مولده كان فى ١٨مايو سنة ١٠٤٨م، وسنده فى هذه التواريخ المحددة العلاّمة الهندى جوفيندا تيرثا Govinda Tirtha فى كتابه « The Nectar Of Grace: Omar Khayyam's Life and Works». ومع ذلك فإن عالمين روسيين هما روزنفيلد ويوشكيفتش فى كتاب

لهما بعنوان «Omar Khayyam: Traktaty – موسكو ١٩٦١» استخدما نفس المعلومات التى استخدمها چوڤيندا ودللا بها على أن وفاة الخيام كانت فى الرابع من ديسمبر سنة ١١٣١م، وبذلك يكون عمره عند الوفاة ٨٣سنة. ويعلق إلويل سيتون على ذلك بأن هذا محتمل لأنه يتوافق مع ماذُكِر من أن الخيام عاش لوقت متأخر.

ومن الأهمية بمكان تحديد وفاة وميلاد الخيام، وذلك لأنه بناء على هذه التواريخ ستتحدد قضايا كثيرة مختلف عليها – منها **قضية الأصدقاء الثلاثة**: عمر الخيام الشاعر والفلكى، ونظام الملك الوزير المشهور، وحسن الصباح مؤسس فرقة الحشاشين والمنظّر للفكر الباطنى فى عصر الخيام. وينفى البعض هذه القضية على أساس أن عمر الخيام لايمكن أن يكون قد التقى نظام الملك بسبب فارق السن الكبير بينهما. ومن هؤلاء **ماسينيون** وآخرون.

والقضية فى رأينا كالآتى: السبب فى هذا الإشكال ماأورده العروضى من تواريخ عن لقائه بالخيام وعن وفاته. وعند موازنة ماقيل عن وصية نظام الملك حول هذا اللقاء المشهور بين زملاء الدراسة، وقصة العهد الذى قطعوه على أنفسهم، بما ذكره العروضى من تواريخ – أقول بموازنة هذين ببعضهما فإن تواريخ العروضى تتهافت، وتتهافت معها كل الاستنتاجات التى تترتب عليها، والأسلم هو مايقول به البعض أن الخيام من شعراء القرن الرابع أو الخامس الهجرى، وأنه عاصر الدولة السلجوقية، وأن ثقافة العصر التى سادت إبّان حكم هذه الدولة هى التى تشيع فى رباعياته، وأن فلسفته التى تعكسها كتاباته النثرية والشعرية هى صدى أو رد فعل للفلسفات التى سادت نيسابور وبلخ وخراسان عموماخلال حكومات آل سلجوق.

ومع ذلك فلا ينبغى أن يُفهم أننا نشكك فى كل رواية العروضى، وإنما نبدى التحفظ على ماورد بها من تواريخ، لأن ذكر هذه التواريخ على هذه الصورة التى وردت بها يوحى بأنها متعمدة، وأن وراءها قصداً معيناً لا أستطيع أن أتكهن به، وقد يكون احتمالاً هو **التشكيك فى وصية نظام الملك وقصة الخيام والصباح**، وقد يكون غير ذلك، والله أعلم.

ويقول العروضى أنه لمّا نزل نيسابور علم بوفاة الخيام، ولم يحدد التاريخ، واكتفى بأن نقل إلينا ماترامى إلى سمعه، ولم يكلف نفسه أن يزور أسرته أو يسأل عنهم، أو عمن تبقى منهم، أو أن يسأل تلاميذه وأصحابه وهم كُثُر، وهذا واجبه كمؤرخ للخيام وتلميذ يستشعر بعظيم الاحترام لأستاذه، وأقل مايقتضيه الوفاء أن يتحرى الدقة فيما يكتبه عنه لأنه للأجيال وللتاريخ.

وعلى أي الأحوال فإن الخيام نفسه قد زودنا ببعض المعلومات عن عمره حيث يقول فى إحدى رباعياته مايثبت بلوغه الشيخوخة:

قد انطوى سِفْر الشباب واغتدى

ربيع أفراحى شتاءً مجدبا

لهفى لطيرٍ كان يُدعى بالصِبا

متى أتى وأىٌّ وقتٍ ذهبا

وعندما يبلغ سن الستين يستشعر أنه قد دنا من الموت أكثر فيقول:

لا تؤمّل مافوق ستين حوْلا

ثم يطعن فى السن ويبلغ السبعين فيقول:

بلغتُ سبعين حوْلاً كاملاً فمتى

ألقى الهناء إذا لم ألقه الآن؟

ثم يبلغ سن الثانية والسبعين فيقول:

هركز دل من ز علم محروم نشد

كم ماند زا سراركه مفهوم نشد

هفتاد ودوسال عمر كردم شب وروز

معلومم شد كه هيچ معلوم نشد

أى ماحرم قلبى قط من العلم، ولم تبق من الأسرار التى فهمتها إلا قليلا، وعشت اثنتين وسبعين سنة، ليلها ونهارها، فعلمت أخيراً بأنى لم أعلم شيئاً أبدا.

والعدد «٧٢» هذا نجده فى ترجمات أخرى للخيام على أنه ٧٢فرقة، وهذا اللبس ربما – أقول ربما – مصدره فيتزچيرالد فإنه يقول فى الرباعية رقم ٤٣ من الطبعة الأولى لترجمته:

The Grape that can with Logic absolute
The Two - and - seventy jarring Sects confute:
The subtle Alchemist that in a Trice
Life's leaden Metal into Gold transmute.

ويترجم البستانى معناها فيقول مشايعاً له حول المقصود من العدد ٧٢:

صاح خلّ الثنتين والسبعينا
ملةً تنشدالهدى واليقينا
واشفِ داءً فى جانبيك دفينا

وفى تفسير هذا العدد يقول **البستانى** فى شروحه على المتن: انقسام الشعوب إلى ٧٢ملّة قولٌ جار مثلاً فى بلاد الفرس. وقد ذكر أحد شرّاح الرباعيات كلاماً مروياً عن الرسول مآله: إن أمتى ستنقسم إلى ثلاث وسبعين ملّة، جميعها تدخل النار إلاّ واحدة. والخيام هنا يشير إلى الشيع والطوائف على اختلاف نزعاتها.- فهل ياتُرى انساق البستانى وراء خطأ ارتكبه فيتزجيرالد حول العدد ٧٢، أم أن هناك رباعية ترجمتها كما أوردها الشاعر الإنجليزى وتابعه فيها الشاعر العربى؟

ونعود إلى رواية العروضى عن وفاة الخيام ونكتفى منها بأن الخيام كانت وفاته بنيسابور ودفن بها بمقبرة الحيرة. وقبر الخيام مايزال هناك وقد ابتنى فوقه المحبون لرباعياته ضريحاً يزوره الناس ويتبركون به. وعندما زاره العروضى تذكر نبوءة الخيام التى سمعه يقولها بحضوره وفى مجلس الأمير أبى سعد بقصره ببلخ: أن قبره سيكون فى موضع تنثر الشمال الأزهار عليه كل ربيع». وقد فاجأ قوله ذاك العروضى وظنه يقول المستحيل، إذ من أين له أن يعرف؟ فلّما زار قبره وأرشد إليه أحد الأدلاّء وجده أسفل حائطٍ لبستان «وقد امتدت أغصان أشجار الكمثرى والمشمش من البستان عليه، ونثرت من أوراق النور على ثراه ماغطّاه بالزهر»، وعندئذ تذكر النبوءة وتحسّر على أستاذه وغلبه البكاء. ولاأحسب يقيناً أن ما أبكاه هو مشهد القبر ولاتحقق النبوءة، وإنما هو بالتأكيد هذه الأبيات التى أبدعها أستاذه عن مثل هذا الموقف والتى تذكرها الأجيال له. يقول الخيام:

يا دهر أكثرت البلى والخراب * وسُمت كل الناس العذاب
ويا ثرى كم فيك من جوهر * يبين لو ينبش هذا التراب
وإن توافِ العشب عند الغدير * قد كسا الأرض بساطاً نضير
فامش الهوينا فوقه إنه * غذّته أوصال حبيب طرير!!

وأحسب أن العروضى قد انصاع للأمر ومشى الهوينا ودموعه تخضل لحيته وتمتلىء بها مآقيه!

ويروى الشهرزورى مشهد وفاته فيأتى وصفه كأبدع مايكون الوصف الدرامى من جلالٍ

وعظمة، وشموخ ووقار، ورقة وحنّو يذيب القلب.- يقول الشهرزورى عن ختن الخيام المسمى محمد البغدادى الذى حضر الوفاة ونقل هذا الوصف إليه بعد أن رآه رأى العين - قال: كان الإمام عمر يقرأ متأملاً فصل الإلهيات من كتاب الشفاء لابن سينا، وكان يتخلل بخلال من ذهب (كذا!)، فلما وصل إلى باب الواحد والكثير وضع الخلال بين الورقتين وطلب أن ندعو أصحابه حتى يوصى، فلما وصّى قام وصلى، ولم يذق طعاماً ولا شراباً حتى كانت صلاة العشاء فصلاها وسمعوه يقول: «**اللّهم إنك تعلم أنى عرفتك على مبلغ علمى، فاغفر لى فإن معرفتى إياك وسيلتى إليك..**» ثم أسلم الروح!

وكأنها ميتة بطل تراچيدى - أو كما يقولون كانت نهايته نهاية تستحق!

ولنراجع المشهد: عمر يقرأ ويتأمل. وأى كتاب كان يقرأ؟ هو كتاب الشفاء للفيلسوف الأعظم ابن سينا، والشفاء هو رائعته الفريدة ودرته الخريدة.

وواضح أنه تأثر بما كان يقرأ أشد التأثر حتى أنه قام يصلى ويوصى، وامتنع بعد ذلك عن الكلام والحركة فلا يكلم إنسياً، وكأنه كان يستحضر نفسه أمام ربه، ولذلك سمعوه يناجيه مناجاة العارف بالله: يارب! لقد عرفتك على قدر ما أستطيع، وشفيعى إليك هو هذه المعرفة بك، فاغفر يارب!

وقالوا أكثر من ذلك إن آخر ماأنشده قبل وفاته هذا الرباعى:

يارب خردم درخور اثبات تونيست
واندیشهٔ من بجز مناجات تونيست
من ذات ترا بواجبى كى دانم
دانندهٔ ذات تو بجز ذات تونيست

أى: ياربى! إن عقلى قاصر عن معرفة أسبابك، وماتفكيرى إلاّ مناجاة لك. وأنا أعرف ذاتك حق المعرفة، ولايعلم ذاتك غير ذاتك.

وقيل كانت آخر أناشيده قبل الوفاة هذه الرباعية:

سير آمدى أى خداى از هستى خويش
از تنك دلى واز تهى دستى خويش
از نيست چوهست ميكنى بيرون آر
زين نيستيم بحرمت هستى خويش

ومعناها: ملت يا إلهى وجودى من ضيق صدرى وقلة ذات يدى. يامن يجعل من العدم وجوداً، أخرجنى من عدمى بحرمة وجودك!

*****

(٢)

عمر الخيام: الموطن

ذهب بعض المؤرخين إلى أن الخيام من مواليد قرية شمشاد من قرى بلخ، أو من بسنك استراباد، إلاّ أن مايذهبون إليه ليس له مايرجحه يقينا، ويكاد يكون الإجماع على أن الخيام نيسابورى، ولد بنيسابور، وفيها عاش، وبها دفن.

وفى كتاب **نزهة الأرواح للشهرزورى** أن عمر الخيام نيسابورى أصلاً وموطناً، ويذكر **القفطى فى تاريخ الحكماء** أنه إمام خراسان، باعتبار أن نيسابور تتبع إقليم خراسان، ولذلك فإن **البيهقى** فى كتاب **تتمة صوان الحكمة** يعدد حكماء خراسان الإقليم ويقول إن الخيام بالنسبة لهم أزخرهم بحراً، وأرفعهم قدراً، وينبه **القزوينى فى آثار البلاد** إلى أن نيسابور ينسب إليها من الحكماء عمر الخيام.

وَنيْسَابور كما ترد فى **معجم البلدان لياقوت الحموى**: بفتح أولها، والعامة يسمونها نَشَاوور، مدينة عظيمة ذات فضائل جسيمة. وهى معدن الفضلاء، ومنبع العلماء. لم أر فيما طوّفتُ من البلاد مدينة كانت مثلها. وقال **بطليموس فى كتابه الملحمة**: مدينة نيسابور طالعها الميزان، ولها شركة فى كفّ الجوزاء مع الشعْرَى، ومن هناك طالت أعمار أهلها.

واختُلف فى تسميتها بهذا الاسم، فقال بعضهم إنما سميت بذلك لأن «سابور» مرّ بها وفيها قصب كثير، فقال يصلح أن يكون ههنا مدينة، فقيل لها نيسابور.

وقيل فى تسميتها وتسمية مدن سابور خَواست وجنديسابور أن سابور لما فقدوه حين خرج من مملكته كقول المنجمين، خرج أصحابه يطلبونه فبلغوا نيسابور فلم يجدوه، فقالوا نيست سابور، أى ليس سابور، فرجعوا حتى وقعوا إلى سابور خواست، فقيل لهم ماتريدون، قالوا سابور خواست، ومعناه نطلب سابور، ثم وقعوا إلى جنديسابور، فقالوا وندسابور، أى وُجد سابور.

وإذن فنيسابورليست هى جنديسابور، ولذلك فقد وقع المرحوم **توفيق مفرج** مترجم

الرباعيات فى الخطأ عندما ذكر أن الخيام من جنديسابور، فاختلط عليه أمر التسميتين وظنهما واحدا، أو أنه ظن أن الصواب نطق نيسابور جنديسابور، والله أعلم.

ويقول **الحموى** إن أكثر شُرب أهل نيسابور كان من قِنى تجرى تحت الأرض، ينزل إليها فى سراديب مهيأة لذلك، فيوجد الماء تحت الأرض وليس بصادق الحلاوة. ويقول إن عهده بها كثيرة الفواكه. وكان المسلمون قد فتحوها فى أيام عثمان بن عفان والأمير عبد الله بن عامر بن كُرَيز سنة ٣١هـ صُلحاً، وبنى بها جامعا. وقيل إنها فُتحت فى أيام عمر على يد الأحنف بن قيس، وإنما انتفضت فى أيام عثمان، فأرسل إليها عبد الله بن عامر ففتحها ثانية، وأصابها الغُز سنة ٥٤٨هـ بمصيبة عظيمة، حيث أسروا الملك سنجر، وملكوا أكثر خراسان، وقدموا نيسابور، وقتلوا كل من وجدوا، واستصفوا أموالهم حتى لم يبق فيها من يُعرف، وخرّبوها وأحرقوها، ثم اختلفوا فهلكوا، واستولى عليها المؤيد أحد مماليك سنجر. وتقلّبت بها الأحوال حتى عادت - كما يقول الحموى - أعمر بلاد الله، وأحسنها وأكثرها خيراً وأهلاً وأموالاً، لأنها **دهليز المشرق، ولابد للقفول من ورودها**، وبقيت على ذلك إلى سنة ٦١٨هـ.

تلك إذن نيسابور، حاضرة من الحواضر الإسلامية الكبرى، وفيها تجتمع كل الثقافات والملل والأديان والنحل، لأنها على حد تعبير الحموى دهليز المشرق الذى لابد للقوافل من ورودها. ولاينبغى أن ننسى ذلك ونحن نتحدث عن ثقافة عمر الخيام. ومع كل ماسبق فإن لكل عُملة وجهين، وكان ذلك هو الوجه المشرق لنيسابور، أما وجهها الردىء وهو الذى أنِفَ منه الخيام وشكا منه مرّ الشكوى فهو ماقد ظهر له من رياء أهلها وصعوبة تحصيل العيش فيها. يقول:

يا باقياً رهن الرياء ورائحاً

لتصير عيشك فى عناء متعب

وقال فيها القاضى أبو الحسن الاسترابازى:

لاقدّس الله نيسابور من بلد * سوق النفاق بمغناها على ساق

يموت فيها الفتى جوعاً وبرُّهم * والفضل ماشئت من خير وأرزاق

والخير فى معدن الفَرْئى وإن برقت * أنواره فى المعان غير برّاق

وقال المرادى يذمّ أهلها:

لاتنزلن بنيسابور مغترباً * إلاّ وحبلك موصولٌ بسلطان
أو لا فلا أدب يجدى ولا حسبٌ * يُغنى ولا حُرمة تُرعى لإنسان

*****